غزوة الطائف

في شوال سنة ٨ هـ

تُعدُّ هذه الغزوة - في الحقيقة - امتداداً لغزوة حنين، وذلك أن معظم فُلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام «مالك بن عوف النصري» وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين.

وحاصرهم رسول الله ﷺ مدة غير قليلة، ففي رواية أنس رضي الله عنه عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً، وعند أهل السير خلاف ذلك، فقيل: عشرين يوماً، وقيل: ثمانية عشر، وقيل خمسة عشر.

روى البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:

«لَمَّا حَاصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّائِفَ، فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُمْ شَيْئًا، قَالَ: إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: نَذْهَبُ وَلا نَفْتَحُهُ، وَقَالَ مَرَّةً: نَقْفُلُ.

فَقَالَ: اغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ، فَغَدَوْا فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ.

فَقَالَ: إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَأَعْجَبَهُمْ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ»[1].

ولما طال الحصار واستعصى الحصنُ، استشار رسولُ الله ﷺ نَوْفَلَ بن معاوية الدِّيلي، فقال: ما ترى؟ فقال ثعلبٌ في جحر، إن أقمتَ عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك.

فأمر رسولُ الله ﷺ ابنَ الخطاب، فأذَّن في الناس بالرحيل، فضجَّ الناسُ من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟!

فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال».

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٨١، مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٢٩.

فَغَدوا، فأصابت المسلمين جراحاتٌ فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فسُرُّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك.

فلما ارتحلوا واستَقَلُّوا قال: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون»

وقيل: يا رسول الله ادْعُ الله على ثقيف فقال: «اللهم اهْد ثقيفاً، وائت بهم»

وقد استجاب الله دعاءه، وقدم مَنْ قدم إلى المدينة، بعد عودة الرسول ﷺ من تَبُوك في رمضان، وقد هدى الله كثيراً منهم.

وقد روى أبو داوود، عَنْ وَهْبٍ قَالَ: «سَأَلْتُ جَابِرًا عَنْ شَأْنِ ثَقِيفٍ إِذْ بَايَعَتْ. قَالَ: اشْتَرَطَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لا صَدَقَةَ عَلَيْهَا ولا جِهَادَ، وَأَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ - بَعْدَ ذَلِكَ - يَقُولُ: سَيَتَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا»(١).

قسمة الغنائم بالجعرانة:

ثمَّ أمَرَ رسولُ الله ﷺ بالسَّبْي والغنائم أن تُجمع، فجُمع ذلك كُلُّه، ووجّهُوه إلى الجِعرانة، وكان السَّبْيُ ستةَ آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألفاً، وأربعة آلاف أوقية فضة.

فاسْتَأْنَى بهم رسول الله ﷺ أن يقدُموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة، ثُمَّ بدأ بالأموال فقسَّمها، وأعطى المؤلفة قلوبُهم أوَّلَ الناس، فأعطى سفيانَ بن حرب أربعين أُوقية ومئة من الإبل، فقال ابني يزيد، قال: أعْطُوه أربعين أُوقية ومئة من الإبل، فقال: ابني معاوية، قال: أعْطُوه أربعين أُوقية ومئة من الإبل.

وأعطى حكيم بنَ حَزام مئة من الإبل، ثُمَّ سأله مئة أُخرى فأعطاه.

وأعطى النَّضْرَ بن الحارث بن كِلْدةَ مئة من الإبل.

وأعطى العلاءَ بن حارثة الثقفي خمسينَ، وذكر أصحاب المئة وأصحاب الخمسين.

---

(١) سنن أبي داود - كتاب الخراج والإمارة والفيء، حديث رقم ٢٦٣٠.

وأعطى العبَّاس بن مرداسٍ أربعين، فقال في ذلك شِعْراً، فكمَّلَ له المئة.

ثُمَّ أمر زيدَ بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس، ثُمَّ فضَّها على الناس فكانت سهامهم لكل رَجُلٍ أربعًا من الإبل، وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومئة شاة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، وقَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ.

فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ.

قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ..

وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ

وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ منها شيء!

قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلاَّ امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي.

قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الحَظِيرَةِ.

قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الحَظِيرَةِ.

قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لَه، أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ.

فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟!

قَالُوا: بَلَى. اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ.

قَالَ: ألا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار؟

قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ؟

قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ.

أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ - يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار - فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلاَمِكُمْ.

أَلا تَرْضَوْنَ - يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار - أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ؟

فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَار.

وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَار شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَار.

اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَار، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَار، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَار.

قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا.

ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا»[1].

---

(١) أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٣٠٥، مجمع الزوائد ٢٩/١٠.

كعب بن زُهير يلتقي برسول الله ﷺ:

قال ابن إسحاق:

ولما قدم رسول الله ﷺ من الطائف، كتب بُجَيْر بن زهير إلى أخيه كعب يُخبرُه أنَّ رسول الله قَتَلَ رجالاً بمكة ممَّن كان يَهْجُوه ويؤذيه، وأنَّ مَن بَقِيَ من شعراء قريش قد هربوا في كُلِّ وَجْه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فَطِر إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً مسلماً، وإنْ أنت لم تفعل فانج إلى نجائك ودار بين كعب وأخيه بُجير حوارٌ قالا فيه شعراً.

وكان آخر ما كتبه بُجير إلى أخيه كعب شعراً، قال فيه:

مَنْ مُبْلغٌ كَعباً فهلْ لَكَ في التي ... تَلُومُ عليها باطِلاً وهي أحْزَمُ
إلى الله لا العُزَّى ولا اللاتِ وحْدَه ... فَتَنْجُوا إذا كان النَّجاءُ وتَسْلَمُ
لَدَى يومَ لا يَنْجُو ولَيْسَ بِمُفلِتٍ ... من النَّاس إلاَّ طاهرُ القلبِ مُسْلِمُ
فدينُ زُهَيرٍ وهو لا شيءَ دينُهُ ... ودينُ أبى سُلْمى علىَّ مُحَرَّمُ

فلما بلغ كعبًا الكتابُ، ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به مَن كان في حاضرِه من عدُوِّه، فقال: هو مقتول.

فلما لم يجد من شيء بُدَّاً، قال قصيدته التي يمدح فيها رسولَ الله ﷺ، وذكر خَوْفه وإرجافَ الوشاة من عدوّه

ثُمَّ خرج حتى قدم المدينة الْمُنَوَّرَة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفةٌ من جُهينة، فغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلَّى الصبحَ، فصلَّى مع رسول الله ﷺ ثُمَّ أشار إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسولُ الله ﷺ فقم إليه فاستأمِنْه

فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسولُ الله ﷺ لا يعرفُه، فقال: يا رسول الله، إنَّ كعبَ بن زهير قد جاء لِيَسْتأمنك تائباً مُسْلماً، فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به؟

قال رسول الله ﷺ: نعم.

قال: أنا يا رسولَ الله كعبُ بن زهير.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب على رجل من الأنصار، فقال: يا رسولَ الله، دَعْني وعدوّ الله، اضرب عُنقَه.

فقال رسول الله ﷺ: «دَعهُ عنك، فقد جاء تائباً نادماً عَمَّا كان منه».

قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لَمَا صَنَعَ صاحبُهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجلٌ من المهاجرين إلاَّ بخير.

فقال قصيدته اللاميَّة التي يصف فيها محبوبته وناقته التي أولها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبُول متيَّمٌ إثْرها لم يُفْدَ مكبولُ

يَسْعَى الغواة جَنَابَيْها وقولُهم إنَّك يا ابن أبى سُلمى لمقتولُ

والتي جاء فيها:

فقلتُ خَلُّوا طريقي لا أبا لكُمُ فكُلُّ ما قدَّر الرحمن مفعولُ

كلُّ ابن أنثى وإن طَالتْ سلامتُه يوماً على آلةٍ حَدْباء محمُولُ

نُبئتُ أنَّ رسولَ الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمولُ

وكعبُ بن زهير - كما هو معلوم - من فحول الشعراء هو وأبوه وابنُه عقبة وابن ابنه العوَّام بن عقبة.

لو كنتُ أعجبُ من شيء لأعْجبن سعيُ الفَتَى وهو مخبوءٌ له القَدَرُ

يَسْعَى الفتى لأمورٍ ليس يُدْركها فالنَّفسُ واحدةٌ والهمُّ منتَشِرُ

والمرء ما عاش مَمْدود له أمل لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الأثرُ

ومما يُستحسن لكعب قولُه:

أسلم زهير، فهنيئا له بما أسلم.

وكفاه فخراً أن يُسلم ويُمناه في كَفِّ رسول الله ﷺ:

حتى وضَعْتُ يميني ما أُنازِعُها في كفِّ ذِي نَقَمَاتٍ قولُه القِيلُ

والمراد به النبي ﷺ.

*****

obeikandl.com